

بشير قاسم يوشع رائد الكتابة التاريخية بـغدامس

باحث - غدامس - ليبيا

أ. نورالدين الثني

المستخلص:

يتناول هذا البحث بالدراسة شخصية بشير قاسم يوشع بوصفه أحد أعلام الكتابة التاريخية الليبية في الحقبة الحديثة، حيث كان لنشأته وبيته المحيطة الدور الكبير في صقل أفكاره وتحديد توجهه، علاوة على الشعور القوي بأهمية تاريخ مدينته غدامس هذه الأهمية المتنوعة من حيث التاريخ والإرث الحضاري والأهمية الاستراتيجية، كما أنها تحتوي على إرث تاريخي ضخم والمتمثل في الوثائق والمخطوطات والوثائق الأهلية التي تخص العائلات الغدامسية، ويحاول الباحث من خلال هذه الدراسة إبراز أهمية وقيمة يوشع باعتباره رائد للكتابة في ليبيا من خلال التركيز على مؤلفاته التي غطت كل الجوانب المتعلقة بمدينته غدامس.

Bashir Qassem Yousha, a pioneer of historical writing in Ghadames Noureddine Al-Thani

Abstract:

This research introduces the author Bashir Gasim Yousha because he is one of the prominent writers in the field of the modern Libyan history. His education and his environment have a great effect on refining his thoughts and identifying his directions, and above all his awareness of the significance of the history of his city Ghadames in every aspect: the strategic location, the history, and the varied civilizations besides the great legacy of documents and civil transcripts, which are owned by the Ghadamsy families. The researcher attempts to highlight the importance and value of this writer Yousha as a pioneer in writing for history through introducing his works, which cover every side of the city of Ghadames.

(من المؤسف أن أوائلنا يفتقرون إلى الدعاية وتنقصهم الحاسة التاريخية التي بدأت تستيقظ مؤخرًا وما بالعهد من قدم الحرب الإيطالية لليبيا التي تواصلت أكثر من عشرين سنة ، والتي لم يخض مثلها أي شعب عربي ضد الاستعمار الأوربي الحديث ، وبرز فيها قادة شهد لهم الأعداء أنفسهم ، ماذا كتب آباءنا عن هذا الجهاد الذي بهر العالم أجمع ، عمر المختار الذي لا يقاس به أحد في عصره من القادة العرب الذين لهم شرف التصدي للمستعمرين ، ماذا كتب عنه الليبيون؟ كم عدد الليبيين الذين يعرفون حسونة الدغيس الطرابلسي؟ إني أراهن أنهم أقل من الذين يعرفون رفاة الطهطاوي وأحمد عراي ، إننا بهذا الإنكار للذات أعطينا لغيرنا رخصة اتهامنا بالتقصير)⁽¹⁾.

أردت أن أستهل مقالي بهذه الجملة التي قالها بشير قاسم يوشع وسط جمع غفير من علماء التاريخ اجتمعوا أثناء انعقاد المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا واقعها وآفاق العمل حولها بمدينة زليطن عام 1988 ومن خلالها نستطيع أن نتعرف على الدافع الوطني الكبير الذي يدفعه للاجتهاد لكتابة تاريخ بلاده . ولد بشير يوشع في بيئة تقليدية وفي أوساط غنية بالتراث من والدين ينتميان لعائلة عريقة معروفة بغناها المالي والثقافي في أغسطس من عام 1930 وكغيره من أقرانه إلتحق بالمدارس القرآنية لحفظ كتاب الله وحقق هدفه في صباه، كانت فترة طفولته مليئة بالأحداث السياسية التي أثرت ليس عليه هو فحسب وإنما على كافة المنطقة للإيطاليين يستعمرون بلاده والصراع محتدم بينهم وبين الفرنسيين من اجل التسابق على نهش وطنه .

فقد إلتحق بالمدرسة العربية الإيطالية وهو ما مكنه من التعرف على ثقافة المستعمر وأهدافه في البلاد وقد أرخ مترجمنا لهذه الأحداث التي وقعت في واحته من خلال المحاضرة التي ألقاها عام 1993 بقاعة المجاهد بالمركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية (مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية سابقا) والتي عنونها (غدامس والعهد الإيطالي بها) كما تناول في مقاله (ملامح الإدارة العسكرية الفرنسية بـغدامس)⁽²⁾ من خلال معرفته الشخصية باعتباره قريب عهد بالأحداث فقد وثق من خلال المقالة مواقف للاستعمار الإيطالي والفرنسي قد لا نجد لها في المصادر الأخرى ، فقد قال : (سيضل الحديث عن الغزو الإيطالي لليبيا وما قوبل به من جهاد عنيف ماثرا للاهتمام وأبحاث المؤرخين ، ذلك الغزو الغاشم الذي أعدت له إيطاليا طويلا وظنت أنها بالغة أهدافها في احتلال ليبيا واحتوائها بأيسر السبل)⁽³⁾ ويقول في موضع آخر (قبل الحديث عن الإدارة الفرنسية المتعجرفة أذكر أنه بعد أن أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا وبريطانيا إلى جانب ألمانيا ، حسبت ألف حساب لمنطقة غدامس الحساسة التي تقع على مرمى البصر من القوات الفرنسية المتواجدة في الحدين الجزائري والتونسي)⁽⁴⁾

في شبابه انتقل المؤرخ إلى تونس للعمل بها واحتك بالمجتمع التونسي القريب ثقافيا بالمجتمع الغدامسي حيث تلقى بعض المبادئ في اللغة والفقهاء بحضوره دروسا في الفقه والحديث والقرآن بجامع الزيتونة وقد نلمس تجربته هذه من خلال مقاله (الغدامسيون في رحلة الحشائشي) حيث انتقد الكثير مما أورده في مقاله وعلى سبيل المثال لا الحصر قوله : (أما المثل القائل (غدامس تولد وتونس تري) فإني لم أسمع بهذا المثل من قبل ولم أعثر على من سمعه بعد البحث الطويل عنه، ولعله من الأمثال التي ضاعت منا وهي كثيرة بلا شك ، وقد يكون له نصيب كبير من الصحة بحكم الرابطة الوثيقة بين غدامس ومدينة تونس، ولكن خلافا لفهم الحشائشي الذي يقول : (إذا ازداد مولود لأعيانهم يمكث عندهم بـغدامس إلى أن يبلغ سنه سبعة أو ثمانية سنين إلى العشرة ثم يرسلونه إلى تونس لقراءة جانب من القرآن العظيم وتعلم الكتابة...)⁽⁵⁾.

كما استطرد قائلا (فكلمة التربية التي جاءت بالمثل واردة ، ولكنها ليست خاصة بتونس وتواجد السنوسية ، وكأن غدامس يقتصر دورها على الولادة فقط، إن تونس ساعدت كثيرا في التربية والتعليم ولكن غدامس تبقى القاعدة الأولى في ذلك)⁽⁶⁾.

عاد من تونس شابا ناضجا مثقفا معروفا عنه بشغفه بالقراءة وهم كثر المحيطين به الذين يتبادل معهم الصحف والمجلات والكتب يتابع الأحداث الوطنية والإقليمية من المذيعا الذي بدأ ينتشر في واحته كما يناقش تلك الأحداث مع أقرانه في المجالس مع عمله المستمر في مزارع آباءه وأجداده ولذلك تم اختياره ليكون كاتباً بمتصرفية غدامس ثم أميناً مساعداً للشئون الإدارية والمالية ببلدية غدامس .

اتصف مترجمنا بسعة اطلاعه - وهذا ما نلاحظه من خلال مصادر أبحاثه - وحبه الشديد للقراءة ولذلك نقل للعمل كأميناً للمركز الثقافي غدامس الملحق بمقر البلدية وفي أثناء عمله هناك أصدر كتابه الذي يعد مرجعاً هاماً للباحثين في تاريخ المدينة والذي عنوانه (غدامس ملامح وصور) وقد قال في مقدمته (هذا الجزء الحبيب من أرض العروبة والإسلام الذي يحق له أن يفاخر ويباهي غيره باحتوائه على رفات أحد أصحاب⁽⁷⁾ رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم تكن مآثره سوى هذه لكان جديراً بأن توجه إليه العناية من الباحثين الاجتماعيين والمؤرخين وغيرهم، ولكن لم يقدر له الله سبحانه وتعالى أن ينال حقه من هؤلاء حتى الآن . نعم هناك شذرات كتبت عن غدامس ولكنها ليست كافية ولا تناسب ومكانتها التاريخية والحضارية ، وحتى يوجه هؤلاء عنايتهم لهذه البلدة الطيبة ويعيروها ما تستحق من الاهتمام رأيت من واجبي جمع ما تيسر لي من أخبار وأحاديث عن ماضي غدامس وحاضرها تاريخياً واجتماعياً محاولاً إعطاء موجز بسيط عن عادات أهلها ونبذة يسيرة عن نشأتها وأصل أهلها وكيفية بناء مساكنهم وكيف يقيمون احتفالاتهم المختلفة كالأعراس والمآتم وغيرها)⁽⁸⁾

لم يكن راضياً على الكتاب كل الرضاء وهذا حال العلماء الربانيين يشعرون دائماً بالنقص والتقصير فنجد إشارة لذلك في مقدمته لكتابه الموسوم (مدينة غدامس عبر العصور)⁽⁹⁾ حيث أشار في مقدمته قائلاً : ومن الحوافز على تأليفه الإلحاح الذي لمستته من الكثيرين في طلب إعادة طبع كتاب (غدامس ملامح وصور) وإن هذا الكتاب يحتاج عند طبعه للمرة الثانية إلى إعادة نظر وهوامش كثيرة⁽¹⁰⁾ عندما تم تأسيس مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية اتجهت أنظار المؤسسين نحو غدامس باعتبارها معروفة في الأوساط العلمية والثقافية باحتوائها على كنوز كبيرة من المادة المصدرية لتاريخ ليبيا الثقافي والاقتصادي⁽¹¹⁾ وباعتبارها بوابة ليبيا نحو أفريقيا ومارست الكثير من العائلات الغدامسية التجارة مع الكثير من المدن غرباً وشرقاً وجنوباً . يقول مترجمنا (قد لا نجد في الجماهيرية مدينة متداخلة عرقياً بأفريقيا الغربية ، كمدينة غدامس ، ففي هذه المدينة توجد إلى الآن وإلى الأبد عائلات يعود أصلها إلى كانو : وسكتو ، زبرما، تنمبكتو ، وغيرها)⁽¹²⁾ ، وقد أنتج هذا التداخل ثقافة أفريقية أصيلة، عميقة الجذور، توجد بقاياها بغدامس حتى الآن.

ما يؤكد ما يرمي إليه أنه قال (تعتبر الوثائق من أهم المصادر التاريخية ، لما تفيده من معلومات وحقائق حول حياة الشعوب ، وطرق المعيشة والأدوات المستخدمة من ألبسة وأثاث وغير ذلك ومما يعطي الوثيقة أهمية وقيمة صدورها بعفوية من أناس عاديين ليس لهم مأرب ولا غاية يخفونها وراء ما يكتبون، والوثيقة التي بين أيدينا هي من هذا النوع ، ولم يتعد عمرها المائة سنة ولكنها تعطي صورة حقيقية للحياة في غدامس وقت كتابتها وتشير إلى مدى ارتباط هذه المدينة بغيرها ، حضارياً واجتماعياً وثقافياً).⁽¹³⁾

من خلال هذا المبدأ استطاع مترجمنا أن يعمل على تجميع ما أمكنه من وثائق ومخطوطات من بيئته التي قال فيها (كل ما بغدامس من التراث يشير إلى أن بيئتها منذ القديم بيئة علمية مثقفة فهذه المجموعات التي صورت والتي تعتبر نذرا قليلا من كثير لا تثبت من فراغ فكم من مقابر غدامس من ألواح مر عليها مئات السنين تحمل ألقاب العلماء كالفهامة والعلامة والحبر⁽¹⁴⁾ لذلك كانت أول مؤلفاته في هذا المجال كتابه غدامس وثائق تجارية تاريخية اجتماعية عام 1982 وقد استهل مقدمته قائلا : (قد نشأت مولعا بقراءة الأوراق القديمة والمحافظة عليها في صندوقنا الاثري الممتلئ أوراقا مختلفة الأنواع دون أن أدرك معنى لما أفعل ، ولكنني أشعر وأنا أعيد أو أضع ورقة في ذلك الصندوق كأني أحافظ على تحفة ذهبية ، وكم راودتني نفسي الصغيرة وأنا لم أتجاوز بعد الثانية عشر ربيعا على تمزيق جميع تلك الأوراق أو حرقها أو رميها في بئر المسجد كما رأيت كثيرا يفعلون)⁽¹⁵⁾ وكتابه فهرس مخطوطات غدامس في عام 1986م وكذلك وثائق غدامس وثائق تجارية تاريخية اجتماعية في عام 1995م - والجدير بالملاحظة هنا أنه اتبع في تفرغ هذه الوثائق منهجا فريدا وهاما بحيث اختار في كلا الجزئين 150 وثيقة يرى أنها هامة جدا في موضوعها يقوم بتصحيح بعض الأخطاء الإملائية بها، ويوضح ذلك في الهوامش كما يقوم بتفسير بعض الكلمات الغامضة على القارئ العصري حيث أنه تمكن من تعريف القارئ بالكثير من الكلمات والمصطلحات وأسماء الأماكن والمواد وأسماء الشخصيات ولولا هذا الجهد الذي بذله لضاعت والذي لم يره مطبوعا حيث صدر بعد وفاته رحمه الله بعام .

إيماننا منه بأهمية الوثيقة للتأريخ فقد عمل على نشر بعض المقالات معتمدا على معلوماته على الوثائق حيثأفرد مقالا عنونه بـ (أضواء على حملة يوسف باشا القرامانلي على غدامس)⁽¹⁶⁾ يقول فيه (إن المصادر التي بين أيدينا حتى الآن لا تعطينا أية أضواء حول هذه الأمور ، ولا يعدو أن تكون غدامس التي تعتبر نفسها حرة ولا تدفع الضرائب إلا كنوع من الترضية لتسلم تجارتها ، كفت عن هذا الدفع الذي لم تجد له مبرر سوى الابتزاز والتسلط ليس إلا)⁽¹⁷⁾ ويقول (وبهذه الوثيقة⁽¹⁸⁾ التي ستنشر لأول مرة سنناقش بعض ما كتب عن هذه الحملة لتتير لنا الطريق وتسلط لنا بعض الأضواء على هذه الواقعة)⁽¹⁹⁾.

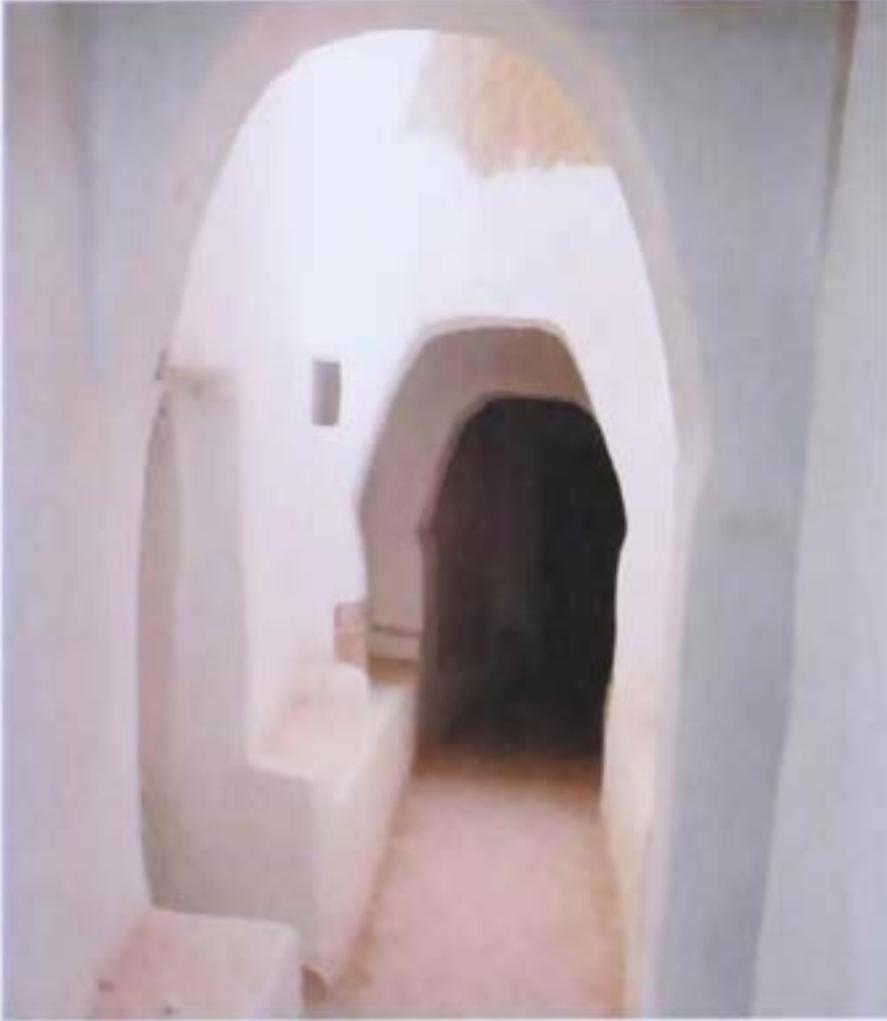
(أما آن للموت أن يرعوى⁽²⁰⁾)⁽²¹⁾ عنوان لقصيدة من أربع أبيات قالها قبل وفاته بعام فيها إشارة واضحة بأن لديه الكثير والكثير الذي يأمل أن يقدمه .

لم يتوقف بعد إحالته للتقاعد من مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية عام 1993 بل استمر يعمل مع بعض الجمعيات المهتمة بالتراث وأثناء حضوره لمعرض أقيم بمدينة بنغازي مرض ونقل للمستشفى وعلى إثره توفي رحمه الله في الشهر العاشر من عام 1994 تاركا كما كبيرا من المادة المنشورة حول غدامس وعدد لا بأس به من المقالات والكتب التي لم تنشر حيث قبض الله له ابنه البار أبو القاسم للاهتمام بموروثه العلمي ليعمل جاهدا لنشره واتاحت له مؤائد الدرس .

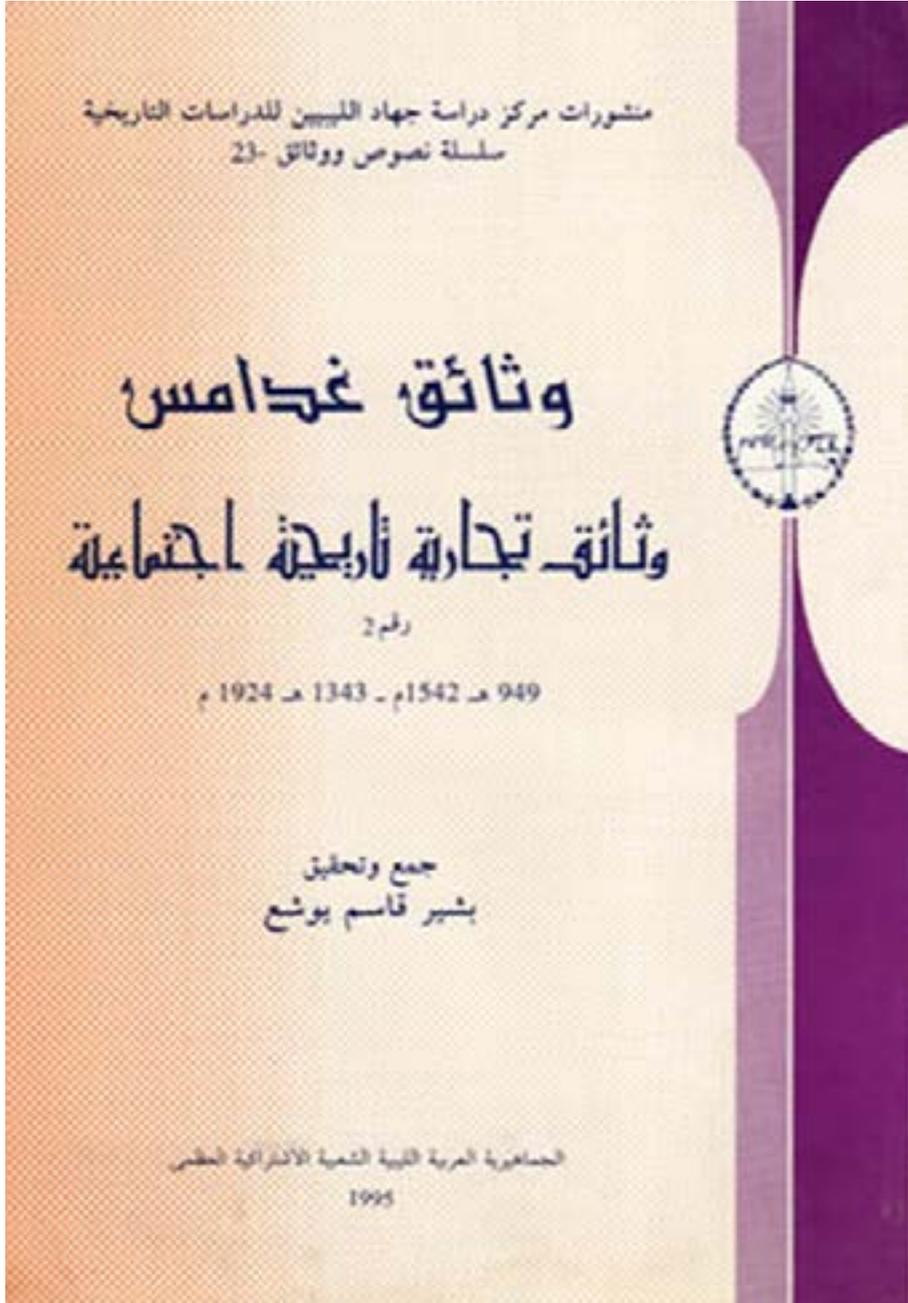
صور للمؤرخ بشير يوشع وبعض منشوراته

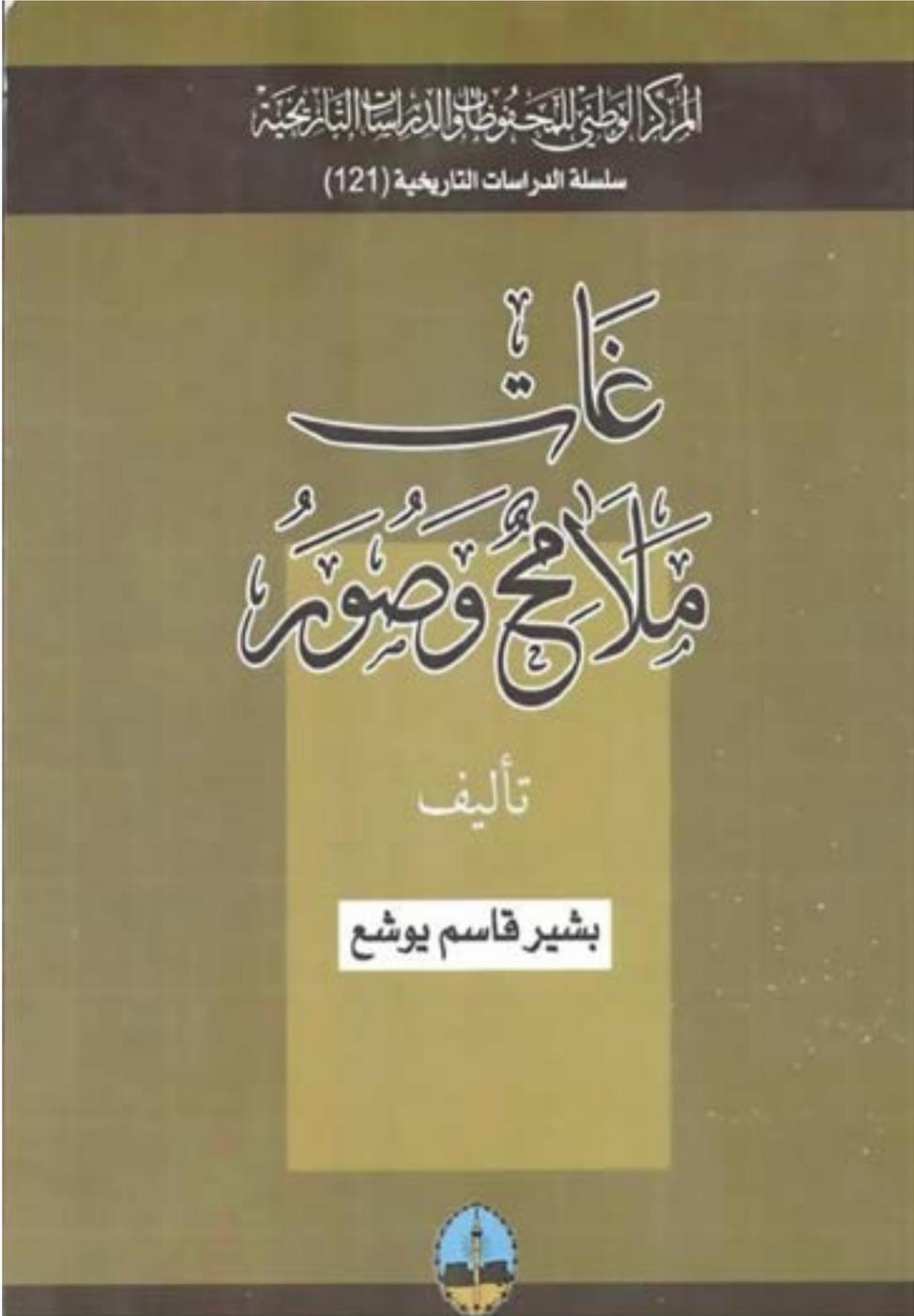


هذا وسطا وسلاما
 غداً يوم الخميس ١٤ / ١٥ / ١٩٥٥ م
 حضرة جناب الدكتور الأمل العياض أغيثنا السيد البشير
 رحمه الله وأمينه العياض وأب السلام مع البركات
 وبعد إذا سألت عنيها فاعلم خبيراً أنتم أن شاء الله تعالى
 جعل له حال الجميع في غير
 أعلم ان هذا جواباً مختصراً ناسب إرساله في جواب
 والدك وزعمهم في السوق في هذه الساعة،
 ترى رسلته لكم تتبين في بيت الدعاية في ترشيح
 عضو نائب في البرلمان بولاية ميزان ورشح أيضاً نفسه
 السيد المهندس محمد صالح وهو مستقل ما وظيفته
 التي هي في السابق من نيليو وحمد الله على ما جعل
 أهدى فاقم الله
 عسى



أحد المجالس بالمدينة القديمة
(المسمى تمقدولت)





الهوامش:

- (1) بشير قاسم يوشع، غدامس من البيئات العلمية الثقافية في ليبيا، أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا واقعها وآفاق العمل حولها، زليطن، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1992، ص 465.
- (2) بشير قاسم يوشع، ملامح الإدارة العسكرية الفرنسية بـغدامس 1943 - 1954، مجلة الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1984 م ص 87 - 102.
- (3) نفس المرجع، ص 87.
- (4) نفس المرجع، ص 88.
- (5) بشير قاسم يوشع، الغدامسيون في رحلة الحشائشي، مجلة البحوث التاريخية، العدد الثاني، السنة الخامسة، يولييه 1983 م، ص 239-256.
- (6) نفس المرجع، ص 245.
- (7) بشير قاسم يوشع، أبو مسعود الانصاري وحقيقة صلته بـغدامس، مجلة تراث الشعب، المجلد 1، العدد 1 مسلسل 22، 1399 و.ر 1990م
- (8) بشير قاسم يوشع، غدامس ملامح وصور، الطبعة الثانية، مطابع الفاتح، مصراته، 2001، ص 6-7
- (9) يحتوي الكتاب على 112 صفحة تناول فيها الكاتب قسمة إلى ثلاثة فصول هي 1 لمحة سريعة عن مدينة غدامس 2. غدامس دويلة مستقلة في العهد العثماني الثاني 3. المعالم الأثرية وقد اعتمد في كتابه على 29 مرجعا ومصدرا وقد أضاف ابنه أبو القاسم كما ورد في التقديم سيرة ذاتية وافية لمؤلف الكتاب وبعض الصور التوضيحية.
- (10) بشير قاسم يوشع، مدينة غدامس عبر العصور، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، (سلسلة الدراسات التاريخية (120))، 2011، ص 11.
- (11) يعود الفضل لأكتشاف المادة المصدرية بـغدامس وتعريفها للوسط الثقافي الليبي للمرحوم الأستاذ الاديب الليبي على مصطفى المصراتي وذلك اثناء زيارته للمدينة عام 1968 صحة الكاتب والعالم الشهير مصطفى محمود.
- (12) بشير قاسم يوشع، لمحات عن العلاقات الثقافية والاجتماعية والعرقية بين غدامس وغرب افريقيا، اعمال ندوة دور الثقافة والتعليم في تحقيق التقارب بين شعوب افريقيا،
- (13) بشير قاسم يوشع، تقسيم تركة أحد مواطني غدامس في أواخر القرن التاسع عشر كما جاء في احدى الوثائق مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة، العدد الأول، يناير 1984 م.
- (14) بشير قاسم يوشع، غدامس من البيئات العلمية والثقافية في ليبيا، أعمال المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات في ليبيا واقعها وآفاق العمل حولها، زليطن، 1988، الجزء الأول، وقف على نشرها وقدم لها عمار جحيدر، 1992 م.

- (15) بشير قاسم يوشع ، غدامس وثائق تجارية تاريخية اجتماعية ، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1982، ص19.
- (16) بشير قاسم يوشع ، أضواء على حملة يوسف باشا القرامانلي على غدامس ، مجلة الثقافة العربية رقم 1، 2، السنة الحادية عشر ، 1984 م ص 67 - 71 .
- (71) نفس المرجع، ص 69.
- (18) وثيقة إقرار اتفاق بين محلتي غدامس بني وليد وبني وازيت من القاضي الشيخ الفقيه سيدي علي بن سيدي عبد الله بن محمد بن مدور وهي تتضمن اعترافا بحكم يوسف باشا قبل وصول حملته الى غدامس ، مؤرخة أواسط اول الربيعين 1233.
- (19) نفس المرجع، ص 69.
- (20) أن يكف .
- (21) عنوان لقصيدة من ديوان شعر للمؤرخ الشاعر بشير يوشع بعنوان (الى الحياة) يحتوي على 80 قصيدة لم ينشر ، تكرم ابنه قاسم باطلاعي عليّة والاستفادة منه وهذه القصيدة إشارة الى ان الكاتب حس بدنو اجله ولا زال من مماعطي الكثير .